

الإسهام المعرفي للاستشراق والاستغراب؛ في تشكيل الرؤية المتبادلة بين الحضارة العربية والآخر

The cognitive contribution of Orientalism and surprise; In the formation of the mutual vision between the Arab civilization and the other

1 د. نصيرة كروشي*

مخبر الدلالة في المستويات اللسانية في التراث الأدبي الجزائري (الجزائر) جامعة أحمد بن بلة وهران

krouchi.nacera@univ-oran1.dz

2 د. منال بورقوبة

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية (الجزائر) جامعة لونيبي علي البلدية 2

manalbouragouba@gmail.com

تاريخ الإرسال 24-07-2025 تاريخ القبول 13-08-2025 تاريخ النشر 16-09-2025

ملخص:

امتدّ الخطاب الاستشراقي في منظومة المفاهيم الثقافية امتداداً معرفياً لمشروع الحداثة ومُنجزاتها، انبثق من سلطة الذات الغربية وهيمنتها، وامتثل العقل الغربي؛ بوصفه النموذج الأمثل لريادة الواقع البشري والمعيّار الذي تقاس وتخضع له سائر الثقافات والحضارات، وتبعاً لهذا التصور الوهمي برز الاستشراق كآلية ثقافية تتشابه مع الأبعاد السياسية والتاريخية والاقتصادية لتطويعها وتسخيرها؛ فرضاً للسيطرة وترسيخاً للاستعلاء الغربي. غير أنّ هذا التيار الاستغلالي لم يبق بمنأى عن النقد، إذ برزت اتجاهات مُناهضة سعت إلى خلخلة أركانه ومساءلة مضامينه، فكان الاستغراب شكلاً من أشكال المقاومة المركزية، باعتباره استجابة معرفية؛ موقفاً مُضاداً للإقصاء مقاوماً للإلغاء الوجودي للذات غير الأوروبية - عربية أو إفريقية - وفتحاً لأفق التعايش ضمن عالم تختلف فيه العقيدة والهوية والثقافة. وتأسيساً على ذلك طرح الإشكال التالي: كيف أسهمت هذه الجدلية في تأصيل رؤية متبادلة ما بين الحضارة العربية والآخر؟ وترويضاً لهاته الإشكالية فإننا نصوّغ أهداف المقاربة في تقييم دور الاستشراق في تشكيل صورة الشرق في الثقافة الغربية، والاستقصاء عن إسهامات الفكر العربي في قراءة الآخر، فضلاً عن اكتشاف نقط التلاقي والتنافي بينهما في الأهداف والسمات.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق - الاستغراب - الأنا - الآخر - التأثير والتأثر

Abstract:

Orientalism, within the framework of cultural concepts, has emerged as an epistemological extension of the modernist project and its achievements. Rooted in the authority and centrality of the Western self, it positioned Western rationality as the ultimate model for understanding human reality and as the standard by which all other cultures and civilizations

are measured and judged. Based on this conception, Orientalism arose as a cultural mechanism intertwined with political, historical, and economic dimensions, aiming to manipulate and harness them in the service of domination and the consolidation of Western supremacy.

However, this exploitative current did not remain beyond critique. Counter-movements emerged, seeking to destabilize its foundations and question its underlying assumptions. Occidentalism, in this context, appeared as a form of intellectual resistance—a counter-stance against exclusion and a challenge to the existential erasure of the non-European self, whether Arab or African. It opened a space for coexistence in a world marked by differences in belief, identity, and culture.

Accordingly, this study raises the following central question: **How has this dialectic contributed to shaping a mutual vision between Arab-Islamic civilization and the Western "Other"?**

To address this problematic, the study aims to assess the role of Orientalism in constructing the image of the East within Western culture, explore the contributions of Arab thought to the understanding of the Other, and identify the points of convergence and divergence between the two in terms of objectives and characteristics.

Keywords: Orientalism – Occidentalism – Self – Other – Influence and Exchange

1. مقدمة:

لقد أسلف مشايخنا الذكر إلى أنّ الحضارة الغربية لا تنفكّ تكرّس جهدها في الأخذ والاستلاب ممّا قدّمته الأمة العربية، وفي المقابل لا بد أن نقرّ كذلك أنّنا أمة لا تنفكّ على إهمال هويّتها وتجريدها من خصوصيّتها. لكن الإشكال المستعصي ليس هنا فحسب وإنّما كيف بإمكاننا أن نثبت لأبنائنا ولهذا الجيل أنّه مثلما اندثرت الأمم الغابرة فإنّ الأمم الصّاعدة ليست بمنأى عن ذلك، وهل يوجد حلاً أمثل للحفاظ عليها من الزوال بغير ترسيخ أركانها وصون هويّتها. وحينئذ لا نستغرب حينما نقول؛ أنّ النّدّ الأول الذي تجابهه الأمة العربية ليست في سهام الآخر الموجهة إلى أصلاب حضارتنا وإنّما الضربة الحاسمة تأتي من بني جلدتنا فنحن الأقدر على طمس هويتنا أو صونها.

وأمام هاته التحدّيات تتأرّ تسأؤلات متباينة تندرج ضمن صراع الهوية؛ سؤال الذات وهيمنة الآخر، أو بالمفهوم المتداول جدليّة الاستشراق والاستغراب؛ وإنّنا من خلال العبور إلى مصاف هذه القضية فإنّنا نروم الإحاطة إلى حدّ ما بأبعاد التجربة الذاتيّة من منظور الآخر، وقراءة الآخر من خلال سلطة أنساقه المركزيّة.

وابتداءً؛ نحيل أنّ مهمّة الاستشراق تتلخّص — ظاهرياً — في دراسة الشّرق بعدسة الغرب وبرؤيتهم الخاصّة، لكن المعول عليه والمخفي عن عامة المجمع البشريّ بناء صورة نمطيّة مشوّهة عن العرب؛ ممّا يعزّز الهيمنة الغربيّة من خلال التّفوّق السّياسي والتّقافي.

وبالمقابل تهدف مهمّة الاستغراب إلى تفكيك هاته الهيمنة وهدم تفوّقها الوهمي، من خلال تحويل مكانة الآخر من مُتَقَصّي إلى مُتَقَصّي، ممّا يعزّز من قدرة الذات على أن يكون وسيلة في تشكيل المعرفة، أو بالأحرى غائيّة

الاستغراب تتلخّص في محو الشّعور بالنقص أمام الآخر، عبر إعادة الصياغة العلائقية بين الأنا والآخر من نمط التبعية والخضوع إلى المواجهة والتّحدّي.

2. الاستشراق؛ كآلية لفرض الذات وإخضاع الآخر

الاستشراق موقفٌ فكريّ رؤيويّ هادف لعب دورًا حاسمًا في الفكر والأدب سواء في العصور السابقة أو الآتية، فقد تمّ استلهم أو بالأحرى استلب الفنون والعلوم العربيّة، ونقلها إلى الغرب حيث شيّد حضارة مترابطة الأركان على أعقابها. وما وصل إليه اليوم وما حقّقه هو نتيجة ذلك التّهب القسريّ وثمار مخرجات الحضارة العربيّة. أمّا حديثًا فقد اقتبس الاستشراق الرّؤى والمعطيات المؤسّسة على ثقافة العرب وأعاد تدويرها وتقديمها للعالم العربيّ، وعلى إثر هذا التّحوّل تولّدت ما يسمّى بالتهضة الفكرية أو ما لُقبت بالاستفاقة العربيّة. وقبل تحديد ماهية الاستشراق نحيل إلى "أنّ الاستشراق أصبح اليوم علمًا له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته، ودراساته ومؤلفاته، وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته، فصار حقًا على الباحث أن يعنى بتحديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة، وآفاقه ومظاهره وأطواره وخصائصه وأهدافه قبل البحث في آثاره وميادين نشاطه"¹ وقد حدّد تعريفه ثلّة من البحّثة أبرزهم محمّد عبد الغني حسن قائلاً: "الاستشراق هو اشتغال غير الشّرقين بدراسة لغات الشّرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه وروحانياته وأثر ذلك في تطوّر البناء الحضاريّ للعالم كلّ".² بمعنى أنّه علّم يدرس لغات شعوب الشّرق وتراثهم وحضارتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم.³

أمّا إدوارد سعيد فيرى أنّ: الاستشراق نمط الإسقاط الغربيّ على الشّرق وإرادة السيطرة عليه.⁴ مضيّفًا أنّه ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثيّ ينعكس سلبيًا باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسّسات وليس تكديسًا لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق... إنّّه بالتّالي توزيع للوعي الجغرافيّ إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية...⁵ ومن هذه الآراء بإمكاننا أن نوجز القول إزاء ماهية الاستشراق:⁶

- الاستشراق علّم يحاول أصحابه دراسة الشّرق وكلّ ما يتعلّق به من لغات وآداب ومعتقدات وعلوم وفنون وما شاكلها.

- أنّ المستشرق هو الذي يشتغل بالعقليات الشّرقية عامة والسّامية خاصة والعربية بوجه خاصّ.

- الاستشراق علّم قائم بذاته له خصائصه التي تدلّ على استقلاله.

- إنّ الاستشراق كمفهوم علميّ حركة علمية تعنى بدراسة الشّرق، ماضيه وحاضره، وما يتعلّق به من علوم مختلفة وما تركه للإنسانية من أثر أضاء أمامها الطريق نحو التّقدّم والازدهار...

1.2. إشكالية الاستشراق؛ بين الدوافع المضمرة والحوافز الاستشراقية

حيث تطرح إشكالية الاستشراق تساؤلات معقّدة تشرّع نوافذ البحث والاستقصاء حيال الغائيات المتوارية والبواعث الاستشراقية لتشكيله والتي مثّلت بدورها البنية التّكوينية لهاته الحركة، قد اصطبغت بصبغة معرفية استكشافية للآخر لكن بالمقابل تمرّر مخطّطاتها خلسة للنّهب والهيمنة خدمة لمصالحها الشخصية. وما نقصّده مجموعة من الاستراتيجيات المركّبة ما بين النوايا الخفية وتطلّعات الطّموح الغربيّ.

لكن قبل التفصيل في هاته المسألة تحديداً لا بد أن نفصل بين الدوافع المضمرة والتي تتعلق غالباً بفرض السيطرة وتوسيع الهيمنة أما الحوافز الصريحة فتتجلى أكثر وضوحاً؛ تتراوح ما بين السعي للمعرفة وتعزيز العلاقات وتحقيق أهداف استراتيجية. يمكن تلخيصها على النحو التالي:

1.1.2 الاستشراق والخطاب المقدس؛ بين التقويض الإسلامي والتبشير المسيحي

من دلائل الاستشراق؛ أنه ظاهرة دينية بالدرجة الأولى، متجذرة في صلب التاريخ ومرتبطة بشيوع الدين الإسلامي، كنظام عقائدي منافس للديانة المسيحية وأتباعها. بمعنى أن بوادر نشوئه ارتبطت بالنزعة الدينية، فقد سعى أعلامه الأوائل إلى مُدرسة الدين الإسلامي تفسيراً وفهماً وترجمة؛ للتصدي له ومُحاربه بعد أن تبين لهم الأمر أنه سيحدث انقلاباً في الموازين وتغييراً جذرياً على مختلف الأصعدة.

فعندما جاء الإسلام "وجد العالم بأسره في أزمة فكرية حادة وقلق روحي بالغ، فحاول أن يخرج النفس البشرية من الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق ومن التعصب إلى التسامح... وسرعان ما بدأ الناس حتى من غير أهله يتوافدون إلى معاهده ومراكزه ليتعلموا فيها، فجاء بعضهم ليفيد ويستفيد والآخر ليتعلم ثم يهدم ويُحارب... وسواءً كان هذا أو ذاك فلم يكن للآخر من سبيل إلا دراسة الإسلام ولغته وآدابه."⁷

وقد ظلت اللغة العربية لفترة طويلة لغة علم وثقافة وفلسفة وسبيلاً حياً للنهوض والازدهار وبدأت أقوم طريق لفهم الكتب السماوية وفلسفتها فتسابق أصحاب الديانات الأخرى إلى تعلمها وتعليمها لمواطنيهم وذويهم. وهكذا أصبح العامل الديني دافعاً قوياً لانتشار الاستشراق في العالم.⁸ فأسسوا معاهد ومراكز لتعليم لغات الشرق لفهم علومه وأديانه وفنونه.

ولو نسائل التاريخ وما حوى هل تعلموا العربية رغبة في أنفسهم أم رهبة مما يرهبون؟ فستلني الرد تأكيداً على ما يُمكنون، فقد اتجهوا إلى العربية؛ لأنها أصبحت لغة علم وفلسفة ولا بد للربان من معرفتها للدفاع عن العقيدة ومنع انتشار الإسلام الذي بدأ يزحف على المعازل المسيحية ويطرق أبوابها ومن هنا فكر الغرب في مواجهة هذا الزحف بالتبشير المضاد بالمسيحية في البلاد الإسلامية.⁹ فأخذوا يهدفون إلى؛ تشويه سمعة الإسلام في نفوس رواده، لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلامية والتشكيك في التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث.¹⁰ لأن الإسلام وبالأخص في تلك الحقبة قد شكّل تهديداً حضارياً ودينيّاً على مكانة الحضارة الغربية وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية في أوروبا وضواحيها لذلك حرصت على مقاومته بشتى السبل.

ما يعني؛ أن حركة الاستشراق أمام الخطاب المقدس قد أدت دوراً مزدوجاً مركباً ما بين فهم الديانة الإسلامية لهدم معالمها تدريجياً والتبشير بالديانة المسيحية، لذلك استعان المستشرقون بسلطة الغرب لنشر المفاهيم الغربية واستبدالها بالثقافة السائدة وتعزيز الفكر المسيحي وتوسيع نطاقه عن طريق الترجمة والتعليم بترجمة النصوص المسيحية إلى العربية وإنشاء مؤسسات تعليمية ومدارس خاصة للترويج لها، كنموذج للتخضر الثقافي المزعوم الذي

يسعى لمواجهة التخلف الفكري في المشرق العربي. وهذا هو ملخص سياسة التقويض الإسلامي والتبشير المسيحي.

2.1.2 الاستشراق والاستعمار؛ بين تعزيز الهيمنة وفرض السيطرة

العلاقة بين الاستشراق والاستعمار علاقة متعاضدة ومتينة جدًا، بل يمثل الاستشراق آلية فكرية وثقافية لتعزيز السلطة الغربية على مستوى الواقع الشرقي. " فهذا الدافع يمثل أخطر الدوافع التي تسعى إلى سحق قوة الذات واحتلالها واستغلال نفوذها وله جذورًا عميقة من قبل الميلاد وازدادت عمقًا مع اندفاع العرب وسيطرة الإسلام على الإمبراطوريات السابقة ووصولها إلى أوروبا، عندما رأى ذلك شرع يعدّ قوته لخوض معركة فاصلة والسيطرة عليه. والحافز الأول لتفعيل حركية الاستعمار هو المسيحية لأنها قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق وبذلك سهّل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته، وزوّدهم بالمال والسلطان وهذا هو السبب أن الاستعمار قام في البداية على أكتاف المبشرين ثم اتّصل بالاستعمار.¹¹ فكان سندًا وحصنًا منيعًا له.

فبعد انتهاء الحروب الصليبية " اتجهوا إلى الشرق ودراسة كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات، ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغنمونها، ولما تمّ لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية وبثّ الوهن والارتباك في تفكيرنا... وشجّعوا كذلك القوميات بين الشعوب العربية ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة وليعرقلوا قوة الاندفاع التحررية.¹² "

وحسب ما طرحناه آنفًا وبتقدير الباحثين أنّ حركية الاستشراق في ظلّ الاستعمار؛ تمثل جزءًا لا يتجزأ من السياسة الفكرية التي أوهمت العقل الشرقي بتفوقها وامتثلت أمامه كذاتٍ راقية ومتقدمة حضاريًا وفكريًا فرسخت في ذهنيته عقدة النقص لما دونته من أفكار مشوهة تستصغره وتحطّ من قيمته، فامتثل أمامها هو الآخر بصورة دونية منكسرة القوى. وهذا ما خلق فكرة التعطّش الشرقي للعقل الغربي ليحرّره من مآسيه، فكانت هاته التصوّرات الاستشراقية ذريعة لترسيخها في ذهنية الشرقي ووسيلة لتبرير الهيمنة الغربية.

ضف إلى ذلك الاستشراق هو آلية لفرض الهيمنة الثقافية؛ فالاستشراق لم يكن عدسة لاكتشاف العقول الشرقية وما أنتجته وإنما آلية لتمرير الثقافة الغربية وتعزيز وجودها؛ عبر الفلسفة، الفنون، الموسيقى، الأدب... وهذا بصورة أو بأخرى قد دعم فكرة التفوق الغربي على العالم العربي واستثمارها لخلق الطبقات الثقافية. ناهيك عن ذلك وكما أشرنا أنّ الاستشراق هو الأداة المثلى لتهيئة المناخ الاستعماري وتقعيد سياسته، من خلال اقتراح وسنّ قوانين تخدم سيطرته سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا؛ لأننا لو نتحرّى عن خلفيات هذا الاستعمار نلخصها في تحقيق مآرب عدّة من ذلك استغلال الثروات الطبيعية وبناء قواعد عسكرية توطّد القوى الاستعمارية... والمعرفة الاستشراقية بدورها أسهمت في تنظيم الغزو العسكري، واكتشاف الحدود الجغرافية والخيرات الطبيعية فتّمت عملية تسهيل ذلك عبر تطلّعاته المعمّقة.

3.1.2 الاستشراق والإيديولوجيا؛ بين تكريس التفوق الغربي وترسيخ التخلف الشرقي

إننا لو نلخص تداعيات الاستشراق من الناحية الأيديولوجية يُستبين لنا أنها تتمحور في هدفين هما؛ استعلاء التفوق الغربي وترسيخ التخلف الشرقي، حيث اعتبرت أنّ الحضارة الغربية بلغت مبلغها في التطور والازدهار علمياً وفكرياً بينما كان الشرق يُنظر إليه على أنّه عالم متخلف عاجز على أن يواصل مسيرته دون تدخل الآخر. ومن خلال نشر هاته الأفكار والمعتقدات قد شجعت على فرض الهيمنة الغربية بل عبّدت الطريق لها. فلو أخذنا في الاعتبار أنّ للاستشراق هدفه وفلسفته فإننا نستيقن أنّه لم يبدأ مصادفة وإمّا نتيجة خطة موضوعة؛ فمن الجلي أنّ أسباباً أيديولوجية تكمن وراء ذلك، يكفي دليلاً أنّ الغرب لم يتردد في سبيل تحقيق أهدافه الأيديولوجية في استخدام جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة قانونياً... من هنا لا نشك أنّ أسباب العناية بدراسة اللغات بجميع ألوانها دافع إيديولوجي محض... وقد كانت هذه الأسباب الأيديولوجية دفعا قويا في زحف الغرب على الشرق وتعلم لغاته وبحث آثاره ومخاربه أفكاره وأيديولوجياته، ولقد تبلور هذا كله في غزو الغرب الفكري الذي كان يرمي إلى إضعاف الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة ليقبله من جذوره ويزيله من وجوده.¹³

وما من شك أنّ البواعث الأيديولوجية كانت إحدى بواعث الاستشراق القويّة وانتشار آفاقه في أنحاء البلاد الأوروبية وبين مواطنيه... وتلك حقيقة لا مرأى فيها ولم يخف على الغرب، أنّه من غير المستطاع انتزاع العواطف من أفئدة الناس وليس من الممكن استئصالها بحملة عسكرية، أو انتشاء محاكم التفتيش... فالمسألة كلّها فكرية وعلمية، ومحاربتها لا بد أن تكون على أسلوب نشأها: ثقافة وغزو وفكر، من أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب.¹⁴

ومختصر القول أنّ الاستشراق يمثّل جزءاً لا يتجزأ من برجة أيديولوجية شديدة التعقيد استعان بها الغرب لتحطيم منزلة العقل الشرقي ووضعه في زاوية شديدة الانغلاق بعد ترسيخ فكرة التخلف العربي بتصوراته المشوهة التي تطوّع خططه وتروّض مصالحه.

4.1.2 الاستشراق والحافز العلمي؛ بين التّهب المعرفي والباعث الداخلي

هذا الدافع يكمن في الطبيعة البشرية للذات الغربية من حيث حرصها، تطلّعاتها، أهدافها، وشغفها باكتشاف كنوز الآخر وآفاقه؛ وبما أنّ حركية الاستشراق هي وليدة صدمة الرجل الغربي وتوقه في اكتشاف الآخر، " فإنّه أخذ يسعى إلى اكتشاف أحوال الشعوب ومعرفة علومها وآدابها..."¹⁵ وهذا الباعث المعرفي والتّحديّ العلمي لفهم ثقافة الآخر وكشف حضارته، ولدت رغبة الاستعلاء والسيادة على الشرق بالطرائق التي تعينه على تعزيز هيمنته.

إنّ الاستشراق - بالمفهوم الأكاديمي- هو تناول قضية من القضايا الشرقيّة بالبحث والتّحقيق، فهو أقرب إلى العلم والمعرفة، أو هكذا أراد له الغرب أن يكون، فهو فرع أكاديمي تطوّر في الغرب لدراسة الشرق

اللغات والآداب العربية.¹⁶ وبالنظر إلى حوافز الاستشراق نلغي أنّ العالم العربيّ يعدّ كنزاً حضاريّاً لا نظير له في بقاع العالم فقد شيّدت فيه حضارات وثقافات، ونشأت لغات وفلسفات، وولدت علوم وفنون، ونزلت شرائع وأديان، وقد أثارت هذه القيم علماء الغرب فاهتمّوا بدراساتها واكتشاف أسرارها؛ وتحقيقاً لهذه الغايات أيقن الغرب أنّه لا بد له أولاً إذا أراد التّهوض أن يدرس أولاً لغات الشرق وآدابها وحضارتها وخصوصاً حضارة الإسلام وما حقّقه هذا الدّين ورجاله من أهداف سياسيّة واجتماعيّة وأخلاقيّة وثقافيّة ...¹⁷

ومن الجليّ أنّ الباعث على دراسة اللّغات الشرقيّة في أول الأمر كان دينيّاً وحريريّاً في القرون الوسطى، ثمّ تحول بعد ذلك إلى أغراض علميّة هدفها كشف ما تكنّه العلوم والفنون الشرقيّة من كنوز ثمينّة... وعلى إثر ذلك توثّقت العلاقات العلميّة ما بين الدّول الشرقيّة والغربيّة وكان للمستشرقين الفضل في إدراك الحقيقة الخالدة التي طالما أنكرها الغرب وهي أنّ المدنيّة الأوروبيّة الحديثة مبعثها الشرق وعلومه وحضارته وفلسفته.¹⁸ وقد صرّح بعض الفرنسيين بذلك في قوله: إنّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدّموه إلينا من كشف مدهشة لنظريّات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربيّة بأكثر من هذا أنّه يدين لها بوجوده نفسه ...¹⁹ فضلاً عن هاته الدّوافع العلميّة فقد أسهمت في تحقيق التّبادل المعرفيّ وتوطيد الجوار ما بين الشرق والغرب وتنمية الروابط ما بينهما إنسانيّاً وثقافيّاً وحتى دينيّاً.

2.2. الإسهام المعرفيّ للاستشراق؛ بين حفظ التّراث الإسلامي ودعم التّهضة

إنّنا في هذا العصر تحديداً لا يمكن البتة أن ننكر دور الاستشراق في السعي إلى تحقيق الحركة التنويرية للعقل الشرقي وحفظ التّراث العربي والإسلاميّ، بالرغم من الانتقادات التي وجّهت إليه لكن بصرف النّظر عن ذلك إلّا أنّنا يمكن النّظر إليه بعدسة مخالفة؛ كأداة لحفظ التّراث الإسلامي وصونه، وكوسيلة لتحقيق الاستفاقة الحداثيّة في الوطن العربي، يمكن تلخيص ذلك على النّحو الآتي:²⁰

- **العناية بالإسلام:** ركّزت على دراسة خصائصه العامة، ظهوره انتشاره، أصالته، فعاليته، نظامه، سياسته، فلسفته، دوره، وأثره وأساس الفلسفي، ونظامه الأخلاقي ومفهومه الكوني، وتطبيقه الواقعي، ومنزلة الإنسان فيه، وغيرها من المسائل التي تتعلّق به.
- **عنايته بالقرآن:** قد اهتمّ بدراسته من جميع نواحيه، فبحث في ترتيبه ووحيه وجمعه ونزوله وأصالته وتفسيره وترجمته وأسلوبه ولغته وأثره في اللّغة والأدب، والفلسفة والفكر، واعتباره مصدراً للشريعة ومعاملاتها مقارنة بالكتب السماويّة الأخرى وغيرها من الموضوعات التي تعالج قضاياها...
- **عنايته بالحديث النبويّ:** التّركيز على تاريخه وجمعه وتدوينه وأهميته، ورواته، ورواياته، وأصالته ومنزلته، وأنواعه، ومصادره واعتباره مصدراً للشريعة، واهتمام علماء الإسلام به، ومناهجهم في توثيقه وتحقيقه ومذاهبهم في نقدهم الدّاخلي والخارجي له وإثباتهم الحقائق التاريخيّة حوله وغيرها من المسائل التي تتعلّق به.

- **عنايته بالرسول ﷺ:** الاهتمام بشخصيته وسيرته وجهاده وفتوحاته ورسائله... ومكانته التاريخية والإنسانية.
- **عنايتهم بالعرب وتاريخهم:** وقد اهتموا بدراسة العرب وقبائلهم وظهور الإسلام ودوره التاريخي والتشريعي ودور العرب في الحضارة والدعوة إلى الإسلام وحضارتهم ونظمهم وسياساتهم...
- **عنايته بالحضارة الإسلامية والعربية:** قد اهتم بدراسة نشأته وتطورها وازدهارها ومعابرها إلى أوروبا وتأثيرها وفضلها على الغرب في ميادين العلم والفلسفة والأدب والبحث العلمي والرياضيات والطب والصيدلة والهندسة والأخلاق والصناعات وغيرها من الألوان الحضارية التي أنتجتها الأمة العربية
- **عنايته باللغة العربية:** فبحث في فقهها وأصواتها ونحوها وصرفها وتركيباتها ولهجاتها ومعاجمها وأصولها وعلاقاتها مع بقية اللغات الأخرى وخاصة اللغات السامية وذلك لصلتها بالقرآن والإسلام والعلوم...
- **دوره في تحقيق النهضة الفكرية:** لقد كان عاملاً في إعادة التجديد في الآليات والمناهج في مختلف الأصعدة كالعلوم والفنون والفلسفة...
- **الترجمة:** اعتنى الأوروبيون بالتراث العربي بعناية كبيرة وانتقوا منه العديد من كتب النقد والإبداع فترجموها إلى العديد من اللغات الأوروبية وقد أفادت هذه الترجمات للآداب والفنون المثقف العربي.

وإجمالاً؛ يمكن القول أنّ الاستشراق رغم خلفياته وسلبياته إلا أنّ العقل الشرقي ممتنّ له في حفظ التراث العربي وتوثيقه وإعادة ترميمه وتحديد مضامينه بما يُناسب روح العصر.

3. الاستغراب كآلية دفاعية؛ بين تفكيك مركزية الآخر وإعادة ترميم الذات المشوهة

الهيمنة بمفهومها التداولي تحيل إلى السلطة التي يفرضها الطرف الأقوى سواءً سياسياً أيديولوجياً عسكرياً اقتصادياً... لكن بالمقابل ومع مرور الوقت ستخلق تأثيرات وردود مُتباينة لدى الشعوب إمّا الانبهار بالآخر والانسلاخ من الأصول أو التصدي والاعتراض. وفي سياق ذلك ظهرت حركات رافضة للهيمنة المركزية وللواقع المفروض وبالخصوص في الوطن العربي، وعندما نحيل إلى الاستغراب فإنّه يمثّل كخطاب مضاد لحركة الاستشراق وتبعاتها. "الذي امتد أثره ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتصوراتها للعالم، وهَدّد استقلالنا الحضاري، بل امتدّ إلى أساليب الحياة اليومية ونقاء اللغة ومظاهر الحياة العامة وفنّ العمارة..."²¹

والاستغراب بمفهوم أدقّ؛ هو الوجه الآخر والمقابل بل والنقيض من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا - الشرق - من خلال الآخر - الغرب -، فإنّ علم الاستغراب يهدف إلى فكّ العقدة التاريخية المزروعة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركّب النقص عند الأنا ومركّب العظمة عند الآخر.²²

فمنذ الاستشراق القديم الذي نشأ واكتمل في عنفوان المدّ الاستعماري الأوروبي لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب المستعمرة أخذ الغرب دور الأنا فأصبح ذاتاً واعتبر الأغرب هو الآخر فأصبح موضوعاً، فالاستشراق القديم يعني رؤية الأنا الأوروبي للآخر اللأوروبي، علاقة الذات الدّارس بالموضوع المدروس، وكان نتيجة

ذلك أن نشأ لدى الأنا الأوروبي مركّب عظمة من كونه ذاتاً دارساً كما نشأ لدى الآخر اللاأوروبي مركّب نقص من كونه موضوعاً مدروساً. أمّا في الاستغراب فقد اختلفت الموازين وتبدّلت الأدوار... وبالتالي تحول جدل الأنا والآخر من جدل الغرب واللاغرب والغرب. فمهمّة علم الاستغراب إذاً؛ فكّ عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركّب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركّب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس، مهمّة القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب، لغة وثقافة، وعلمًا مذاهب ونظريات وآراء ممّا يخلق فيهم إحساساً بالدونية، وقد ينقلب إحساس وهمي بالعظمة ...²³

وإذا نظرنا إلى الاستغراب من حيث هو جملة من الاستراتيجيات التي تسعى إلى إذابة الحركة الاستشراقية الكولونيالية المتعالية بتحويل الأنا من حقل اشتغالي إلى ذات مُشتغلة وتحويل الآخر من نموذج متعالي إلى موضوع يفتقر إلى الدراسة والتنقيب، فإنّ مهمّة الاستغراب إذاً تكمن في: " القضاء على مركّب النقص أمام الغرب، لغة وثقافة وعلمًا، مذاهب ونظريات وآراء، ممّا يخلق فيهم إحساساً بالدونية وقد ينقلب إحساس وهمي بالعظمة."²⁴ ومن المعلوم أنّ الاستشراق ظهر تحت حماية المركزية الأوروبية، أمّا الاستغراب هو وليد الوعي التحرري من سلطة الآخر وإرجاعه إلى مكانه الطبيعي. يمكن تلخيص ثمار ذلك في النقط التالية:²⁵

- احتواء الوعي الأوروبي والسيطرة على آليات تسلّطه وتعالیه.
- وعي التجربة الأوروبية كتجربة تاريخية في مسار بشري طويل وليس كتاريخ للإنسانية.
- إنهاء صورة الثقافة الكونية ومن ثم تفكيك ثنائية المركز والهامش.
- تحرير الشعوب غير الأوروبية من بنية الوعي الدوني تجاه الآخر وفتحها على آفاق الإبداع الحضاريّ الفعال.
- إعادة تحقيب التاريخ بتجاوز المركزية الأوروبية، وتقديم التاريخ البشريّ كحلقات وتراكبات ساهمت فيها ثقافات مختلفة وشعوب متعدّدة.
- تحوّل الاستغراب إلى علم وإطار منهجيّ بكافة حمولاته الاصطلاحية والإجرائية والمنهجية ليكون بديلاً للفكر الاستشراقيّ الكولونياليّ.

وبالتالي فالهدف الرئيسيّ للاستغراب هو القضاء على المركزية الأوروبية والحد من تبعيّة تقليد الآخر وتمجيده احتراماً لثقافة الذات بحكم أنّه لكل مجتمع خصوصيّة، فتداعيات الاستشراق من نشر ثقافة الآخر وتسليط الضوء عليها ما هي في الأصل إلى تجسيد لسياسة التبعيّة.

4. خاتمة:

وإجمالاً؛ وبعد هذا الطرح الموجز حول جدلية الاستشراق والاستغراب يُمكن تلخيص نتائج البحث على النحو التالي:

- حركيّة الاستشراق قد لعبت دوراً مزدوجاً في تشكيل صورة مشوّهة عن الشرق وصورة مثاليّة عن الغرب.

- الاستشراق أداة لفرض الهيمنة بشتى أنماطها الأيدولوجية الثقافية السياسة الاستعمارية...
- الاستشراق وحمولاته الثقافية ذريعة وسياسة لتبرير الهيمنة الاستعمارية.
- الاستغراب جاء كرد ثقافي تحرري يعبر عن الوعي الجماعي للشعوب المستعمرة.
- أسهم الاستغراب في إعادة بناء صورة الآخر كما ينبغي أن تكون على طبيعتها وأصولها.
- التفاعل بين الاستشراق والاستغراب يجسّد صراع الهوية ما بين الأنا والآخر.

وبالمقابل؛ فإنّ معادلة التلاقي والتنافي بين العقل العربي والآخر تمثل جدلية أزلية قائمة على التأثير والتأثر المتبادل وبالخصوص في مجال الحفريات الاستشراقية والمصادرات الاستغرابية، فبالرغم من النظرة الضيقة إزاء الاستشراق باعتباره معطى ثقافياً متحيّزاً إلّا أنّنا يجب أن ننظر من زاوية أخرى وننصف الحكم حيال دوره الوظيفي في نقل التراث العربي والثقافة العربية عمومًا إلى الواقع الغربي حتى وإن لم ينقل فصائلها بنزاهة تامّة إلّا أنّه أسهم في تشكيل صورة الذات في ذهنيّة الآخر - بسلبياتها وإيجابياتها - وفي المقابل تدرّجت حركيّة الاستغراب العربيّة قُدّمًا لفهم الآخر وتقديم قراءة موضوعيّة لحدّ ما تُجَاهه، بعيدًا عن التّطرف والمغالاة.

5. الهوامش:

- ¹ - أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، دط، القاهرة، 1998، ص: 21
- ² - المرجع نفسه، ص: 28
- ³ - المرجع نفسه، ص 31-32
- ⁴ - إدوارد سعيد: الاستشراق، تر كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط01، دب، 2005، ص120.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص 120.
- ⁶ - أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص: 31-32
- ⁷ - المرجع نفسه، ص 38
- ⁸ - المرجع نفسه، ص 38
- ⁹ - المرجع نفسه، ص 39
- ¹⁰ - مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، دار الوفاق، دط، الكويت، 1968م، ص21
- ¹¹ - المرجع نفسه، فلسفة الاستشراق، ص 50-51
- ¹² - مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص23.
- ¹³ - أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص 46-47
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص47
- ¹⁵ - أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص 40-41
- ¹⁶ - سليم حيولة: استراتيجيات النّقد الثقافي في الخطاب المعاصر، دار ميم، ط01، الجزائر، 2021م، ص362
- ¹⁷ - أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص51
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص51
- ¹⁹ - المرجع نفسه، ص52

- ²⁰ - ميادة ثروت: الدور الاستشراقي في إنصاف الحضارة العربيّة، مجلة العمارة والفنون، العدد 10، دت، ص622، نقلا عن، أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، 172-184
- ²¹ - حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، دار الفتيّة، دط، مصر، 1991م، ص18-19
- ²² - المرجع نفسه، ص: 29-30.
- ²³ - ينظر، المرجع نفسه، ص 29-30.
- ²⁴ - المرجع نفسه، ص 24
- ²⁵ - عبد الوهاب شعلان: من الاستشراق إلى الاستغراب قراءة في فكر حسن حنفي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، م04، العدد08، 2007، ص 139.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد سمائلوقتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، دط، القاهرة، 1998.
2. إدوارد سعيد: الاستشراق، تر كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط01، دب، 2005.
3. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، دار الفتيّة، دط، مصر، 1991م.
4. سليم حيولة: استراتيجيات النّقد الثقافي في الخطاب المعاصر، دار ميم، ط01، الجزائر، 2021م.
5. عبد الوهاب شعلان: من الاستشراق إلى الاستغراب قراءة في فكر حسن حنفي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، م4، العدد08، 2007.
6. مصطفى السّباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، دار الوزّاق، دط، الكويت، 1968م.
7. ميادة ثروت: الدور الاستشراقي في إنصاف الحضارة العربيّة، مجلة العمارة والفنون، العدد10، دت.